الفصل الخامس عشر

غزوة فتح مكة (٨ هـ)

المبحث الأول

أسبابها، والاستعداد للخروج والشروع فيه

أولاً: أسبابها:

١ ـ ارتكبت قريش خطأ فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهاجم بنو بكر وحلفاؤهم قبيلة خزاعة عند ماء يقال له الوتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها [١]، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال، لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل؛ إنا قد دخلنا حرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم [٢]، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم وُلداً، وكنا والداً ... ثُمت أسلمنا فلم ننزع يدا [٣]
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربدا
في فيلق كالبحر يجري مُزبدا ... إن قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لي في (كَدَاءٍ) رُصَّدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذل وأقل عدداً
هم بيتونا بالوتير هجّدا ... وقتلونا ركَّعاً وسجدا

---

(١) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٣٩).
(٣) يريد أن أم عبد مناف وأم قصير خزاعيتان.

فقال النبي ﷺ: «نُصرت يا عمرو بن سالم [١]! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب». ولما عرض السحاب من السماء قال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب» [٢].

وجاء في رواية: أن رسول الله ﷺ بعد أن سمع وتأكد من الخبر أرسل إلى قريش فقال لهم: «أما بعد فإنكم إن تبرؤوا من حلف بني بكر، أُتدوا خزاعة [٣]، وإلا أوذنكم بحرب». فقال قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف صهر معاوية: إن بني بكر قوم مشائيم، فلا ندى ما قتلوا لنا سبَد ولا لَبَد [٤]، ولا نبرأ من حلفهم فلم يبق على ديننا أحد غيرهم، ولكن نؤذيه بحرب [٥]، وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجىء قريشاً بالحرب وإنما خيّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب [٦].

٢ ـ أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة ودخل على رسول الله ﷺ يعرض حاجته، أعرض عنه النبي ﷺ ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعاً، فعاد أبو سفيان إلى مكة من غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد [٧]، ومما يذكر عند نزوله في المدينة أنه لما دخل على ابنته أم حبيبة ـ أم المؤمنين ـ وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه؛ فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر [٨].

وهذا الموقف لا يستغرب من أم حبيبة، فهي ممن هاجر الهجرتين وقد قطعت صلاتها بالجاهلية منذ أمد بعيد، إنها لم تر أباها منذ ست عشرة سنة، فلما رأته لم تر فيه الوالد الذي ينبغي أن يُقدَّر ويُحترم، وإنما رأت فيه رأس الكفر الذي وقف في وجه الإسلام وحارب رسوله تلك السنوات الطويلة [٩]، وهذا ما كان يتصف به الصحابة ﷺ من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء والبراء وإعزاز الإسلام والمسلمين، وفي مخاطبة أم حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب مع كونه أباها ومع مكانته العالية في قومه وعند العرب دليل على قوة إيمانها ورسوخ يقينها، لقد كان في

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٤٤).
(٢) المصدر السابق، (٤/ ٤٤)؛ البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨).
(٣) أي تدفعوا دية قتلاهم.
(٤) السَّبد: الشعر، واللَّبد: الصوف، يعني إن فعلنا ذلك لم يبق لنا شيء.
(٥) انظر: المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) رقم (٤٣٦١). قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤).
(٧) انظر: التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي (ص ٣٦٥).
(٨) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٧٩).
(٩) انظر: معين السيرة (ص ٣٩٥).

سلوك أم حبيبة مظهر من اجتهاد الصحابة البالغ في إظهار أمر له أهميته البالغة في المحافظة على شخصية المسلم ودفع معنويته إلى النماء والحيوية [١].

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وتأديب كفارها، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدة أسباب منها:

أ ـ قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها، فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود وتم القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

ب ـ ضعف جبهة الأعداء في الداخل: وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم، وهو يهود المدينة فهم أساتذتهم الذين يوجِّهونهم ويشيرون عليهم.

جـ ـ اهتم رسول الله ﷺ بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش من حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

د ـ كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصادياً، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالًا كثيرة.

هـ ـ انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

و ـ قيام السبب الجوهري والقانوني لغزو مكة وهو نقض قريش للعهد والعقد [٢]، ونلحظ أن النبي ﷺ لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر وذلك بعد صلح الحديبية، والآن تتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيّرت موازين القوى في المنطقة، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعد ﷺ جيشاً لم تشهد له الحجاز مثيلًا من قبل، فقد وصل عدته إلى عشرة آلاف رجل [٣].

ثانياً: الاستعداد للخروج:

إن حركة النبي ﷺ في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات تعلمنا كيفية التعامل مع سنّة الأخذ بالأسباب، سواءً كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية، ففي

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٧٠، ١٧١).
(٢) انظر: السيرة لأبي فارس، (ص ٤٠١).
(٣) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٢٤٤)، التاريخ السياسي والعسكري (ص ٣٦٦).

غزوة الفتح نلاحظ هذه السنّة واضحة في هديه ﷺ، فعندما قرر ﷺ السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١ ـ أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي ﷺ بمبدأ السرية المطلقة والكتمان الشديد، حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر رضي الله عنه أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئاً عن أهدافه الحقيقية ولا باتجاه حركته ولا بالعدو الذي ينوي قتاله، بدليل أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول ﷺ قالت له: ما سمى لنا شيئاً وكانت أحياناً تصمت. وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقصده ﷺ [١].

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم، لأنهن ربما يذعن شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نية فتنقلها الألسن حتى تصير سبباً في حدوث كارثة عظيمة [٢].

٢ ـ أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم:

بعث النبي ﷺ قبل مسيره إلى مكة سرية مكونة من ثمانية رجال وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضَم [٣]، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار.... فمضوا ولم يلقوا جمعاً، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب [٤]، فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبي ﷺ بالسُّقيا [٥] [٦].

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها [٧].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢)؛ الرسول القائد، شيت خطاب (ص ٣٣٣، ٣٣٤).
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٣٩٥، ٣٩٦).
(٣) بطن إضم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة، بطحان وقناة والعقيق.
(٤) ذوي خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد عن المدينة ٣٥ ميلاً.
(٥) السُّقيا: موضع يقع في وادي القرى. معجم البلدان (٣/ ٢٨٨).
(٦) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢).
(٧) انظر: القيادة العسكرية (ص ٤٩٨).

٣ ـ أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث ﷺ رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش: وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب [١]، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمرّ بكم تنكرونه إلا رددتموه... إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة [٢].

إن جمع المعلومات سلاح ذو حدين، وقد استفاد الرسول ﷺ من حدِّه النافع لصالح المسلمين وأبطل مفعول الحد الآخر باتباعه السرية واتخاذها أساساً لتحركاته واستعداداته، ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات التي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوة المناسبة [٣].

٤ ـ دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله ـ ﷻ ـ بالدعاء والتضرع قائلاً: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يَرَونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة» [٤].

وهذا شأن النبي ﷺ في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشرية، ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

٥ ـ إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي ﷺ إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي ﷺ علياً والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلّمته لهم، ثم استدعى حاطب رضي الله عنه للتحقيق فقال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ـ يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من له قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم

---

(١) الأنقاب: جمع نقب، وهو كالعريف على القوم.
(٢) التحفظ: هو الاحتراز والتيقظ، مغازي الواقدي (ص / ٧٩٧).
(٣) انظر: القيادة العسكرية (ص ٣٦٥).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢).

أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم».

فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» [(١)]، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المُمتَحنَة: ١].

يقول الأستاذ سيد قطب: على الرغم من كل ما ذاق المهاجرون من العنت والأذى من قريش، فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهليهم وذوي قرابتهم، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات، وكأن الله يريد استقصاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ، بالأحداث والتعقيب على الأحداث، ليكون العلاج على مسرح الأحداث وليكون الطرق والحديد ساخن [(٢)].

ثالثاً: الشروع في الخروج وأحداث في الطريق:

١ ـ خرج رسول الله ﷺ قاصداً مكة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة [(٣)]، واستخلف على المدينة أبا رهم، كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري [(٤)]، ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكدين وهو ماء بين عُسفان وقديد أفطر وأفطروا [(٥)]، وفي الجحفة لقيه العباس بن عبد المطلب عمه وقد خرج مهاجراً بعياله، فسرّ ﷺ [(٦)]، وفي خروج العباس بأهله وأولاده من مكة، وكان بها بمثابة المراسل العسكري أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أن مهمته فيها قد انتهت، وخاصة، إذا لاحظنا أن بقاءه في مكة كان بأمر الرسول ﷺ [(٧)].

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (٥/ ١٠٥) رقم (٤٢٧٤).
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٦٠، ٥٦١).
(٤) المصدر نفسه (ص ٥٦١).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١٠٦) رقم (٤٢٧٦).
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٨٦)؛ السيرة النبوية لأبي فارس، (ص ٤٠٦).
(٧) انظر: تأملات في السيرة النبوية، محمد السيد الوكيل (ص ٢٥٤).

٢ ـ إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية:

خرج أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية بن المغيرة من مكة فلقيا رسول الله بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك، وصهرك، فقال: «لا حاجة لي فيهما أما ابن عمي، فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال» فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له فقال: والله ليأذنن رسول الله ﷺ، أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى فيه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أوان الحق أهدى وأهتدي
فقل لثقيف لا أريد قتالكم ... وقل لثقيف تلك عندي فأوعدي
هداني هاد غير نفسي ودلّني ... على الله من طردّت كل مطرد
أفر سريعاً جاهداً عن محمدٍ ... وأدعى وإن لمن أنتسب لمحمد
هُمُ عصبة من لم يقل بهواهم ... وإن كان ذا رأيٍ يُلَم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط ... مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
فما كنت في الجيش الذي نال عامراً ... وما كان عن غير لساني ولا يدي
قبائل جاءت من بلاد بعيدة ... توابع جاءت من سهام وسردد
وإن الذي أخرجتم وشتمتم ... سيسعى لكم امرؤ غير مقدد [١]

قال: فلما أنشد رسول الله ﷺ: على الله من طردت كل مطرد، ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: «أنت طردتني كل مطرد» [٢].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله ﷺ كثيراً، وأما عبد الله بن أمية فقد قال لرسول الله ﷺ: فوالله لا أؤمن بك حتى تتخذ إلى السماء سلّماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيهما، ثم تأتي بصكّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك [٣].

ومع فداحة جرمهما فإن النبي ﷺ عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثال عال في الرحمة والعفو والتسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه وكان له موقف مشرّف في الجهاد

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥١٧)، وسيرة ابن هشام.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٣ ـ ٤٥)؛ ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧).
(٣) انظر: ابن هشام (١/ ٢٩٥ ـ ٣٠٠).

مع رسول الله في معركة حنين [١].

٣ ـ النزول بمر الظهران وإسلام أبي سفيان بن حرب سيد قريش:

وتابع رسول الله ﷺ سيره حتى أتى مر الظهران [٢]، فنزل فيه عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب [٣].

قال العباس: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنها لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها [٤] الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانهاوعسكرها. . . . وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال أبو الفضل: قلت: نعم. قال: مالك، فداك أبي وأمي، قال العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إليّ فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد للّه الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر فقال:

يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله إني قد أجرته. . . . فلمَّا أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»، فلما أصبح غدوت به فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).

(٢) مر الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ كلم.

(٣) انظر: معين السيرة (ص ٣٨٧)؛ الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).

(٤) حمشتها الحرب: أحرقتها.

«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: «يا عباس؛ احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها». قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ ومرّت القبائل على راياتها، كلما مرّت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سُليم، فيقول: مالي وسُليم، ثم تمرّ به القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة... حتى مرّ به رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك [١].

إن في هذه القصة دروساً وعِبراً وحكماً في كيفية [تعامل] رسول الله ﷺ [مع] النفوس البشرية، ومن أهم هذه الدروس:

١ ـ عندما أصبح أبو سفيان رهينة بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النبي ﷺ، وهمّ به عمر، وأجاره العباس، ثم جاء في صبيحة اليوم الثاني ليمثل بين يدي رسول الله ﷺ، وكانت المفاجأة الصاعقة له بدل التوبيخ والتهديد والإذلال أن يُدعى إلى الإسلام، فتأثر بهذا الموقف واهتز كيانه فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمي يا محمد، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك [٢]، وعندما قال العباس للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال النبي ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»... ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيئاً يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه [٣]، وكان هذا الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان وبرهن له بأن المكانة التي كانت له عند قريش، لن تنتقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له وبذل في سبيله [٤]. وهذا منهج نبوي كريم، على العلماء والدعاة إلى الله أن يستوعبوه ويعملوا به في تعاملهم مع الناس.

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥١٨ ـ ٥٢٠).
(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ٥٦٤).
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/٤٠٣).
(٤) انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية، محمد رواس (ص ٢٤٥).

٢ - وفي قول رسول الله ﷺ لعمّه العباس عن أبي سفيان: «احبسه بمضيق الوادي، حتى تمرّ به جنود الله فيراها» [١]، ففعل العباس، وكان ﷺ يريد أن يشن حرباً نفسية للتأثير على معنويات قريش حتى يتسنَّى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكة، وحتى يرى أبو سفيان بعيني رأسه مدى قوة ما وصل إليه الجيش الإسلامي من تسليح وتنظيم وحسن طاعة وانضباط، وبذلك تتحطم أي فكرة في نفوس المكيين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك، إذا دخل مكة لتحريرها من براثن الشرك والوثنية [٢]، وبالفعل تمّ ما رسمه رسول الله ﷺ وأدرك أبو سفيان قوة المسلمين وأنه لا قبل لقريش بهم، حتى إذا مرّت به كتيبة المهاجرين والأنصار، (قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة قال: فنعم إذاً. . . .) [٣].

إنها النبوة، تلك هي الكلمة التي أدارتها الحكمة الإلهية على لسان العباس، حتى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كل من يتوهم أو يوهم أن دعوة النبي ﷺ إنما كانت ابتغاء ملك أو زعامة، أو إحياء قومية أو عصبية، وهي كلمة جاءت عنواناً لحياة رسول الله ﷺ من أولها إلى آخرها، فقد كانت ساعات عمره ومراحلها كلها دليلاً ناطقاً على أنه بعث لتبليغ رسالة الله إلى الناس، لا لإشادة ملك لنفسه في الأرض [٤].

لقد تعمد النبي ﷺ شنّ الحرب النفسية على أعدائه أثناء سيره لفتح مكة، حيث أمر رسول الله ﷺ بإيقاد النيران، فأوقدوا عشرة آلاف نار في ليلة واحدة حتى ملأت الأفق فكان لمعسكرهم منظر مهيب، كادت تنخلع قلوب القريشيين من شدة هوله [٥]، وقد قصد النبي ﷺ من ذلك تحطيم نفسيات أعدائه والقضاء على معنوياتهم، حتى لا يفكروا في أية مقاومة، وإجبارهم على الاستسلام لكي يتم له تحقيق هدفه دون إراقة دماء، وبتطبيق هذا الأسلوب، تمّ له ﷺ ما أراد، ولقد كان اهتمام النبي ﷺ بمعنويات المقاتل ونفسيته سبقاً عسكرياً، بدليل أن المدارس العسكرية التي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية والاهتمام من الناحية العسكرية [٦].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢).
(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص ٤٤٧).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٢).
(٤) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٢٧٥).
(٥) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ١٣٥).
(٦) انظر: العبقرية العسكرية وغزوات الرسول، للّواء محمد فرج (ص ٥٦٥).

المبحث الثاني

خطة النبي ﷺ لدخول مكة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصحابة:

عندما وصل النبي ﷺ إلى ذي طوى [١] وزّع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة [٢]، وبطن الوادي، فقال: «يا أبا هريرة ادع لي الأنصار» فدعاهم فجاؤوا يهرولون، فقال: «يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش» قالوا: نعم. قال: «انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً»، وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «موعدكم الصفا» [٣].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم [٤]، وبهذا كانت المسؤوليات واضحة، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه [٥].

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آن واحد، ولم تلق تلك القوات مقاومة. وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفلول المشركين حيث عجزت عن التجمع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد، ونجحت خطة الرسول ﷺ، فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجّه إليها، في سلم واستسلام؛ إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد [٦]، فقد تجمع متطرِّفو قريش ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخندمة) وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام وصمموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش السيطرة على مكة

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ٣٨٩).
(٢) البياذقة: الرجالة.
(٣) مسلم، باب فتح مكة رقم (١٧٨٠).
(٤) انظر: معين السيرة (ص ٣٩٠).
(٥) المصدر السابق، (ص ٣٩٠).
(٦) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٣٩٧).

المكرمة [١]، وقد حدثتنا كتب السيرة والتاريخ عن قصة حماس بن خالد من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحاً لمقاتلة المسلمين وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يوماً: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء! فقال: إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم... ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالي علة ... هذا سلاح كامل وألَّة [٢]
وذو غرارين سريع السَّلة

فلما جاء يوم الفتح ناوش حماس هذا شيئاً من قتال مع رجال عكرمة، ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيش خالد، فخرج منهزماً حتى بلغ بيته فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب....

فقالت المرأة لفارسها المعلَم: فأين ما كنت تقول؟

فقال يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة [٣] ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيت [٤] خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي باللوم أدنى كلمة [٥]

لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول، لكي يتمكنوا من دخول مكة، بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وجعل ﷺ لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء ويشبع في نفسه عاطفة الفخر، التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه [٦].

لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية (ص ١٢٢، ١٢٣).
(٢) ألة: حربة.
(٣) المؤتمة: الأسطوانة، وأبو يزيد: سهيل بن عمرو.
(٤) النهيت: صوت الصدر.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٥).
(٦) انظر: دراسة في السيرة، د. عماد الدين خليل (ص ٢٤٥).

آمن. فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميث الدسم الأحمس ـ تشبهه بالزق لسمنه ـ قبح من طليعة قوم. قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك، قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد [١].

وحرص النبي ﷺ أن يدخل الكداء التي بأعلى مكة [٢] تحقيقاً لقول صاحبه الشاعر المبدع حسان بن ثابت حين هجا قريش وأخبرهم بأن خيل الله تعالى ستدخل من كداء، وتعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسان، حيث قال:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع [٣] موعدها كداء
ينازعن الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء
فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز [٤] الله فيه من يشاء
وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء
وقال الله قد سيرت جنداً ... هم الأنصار عرصتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال أو هجاء
فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء
ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة [٥] فقد برح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفءٍ ... فشرُّكما لخير كما الفداء
هجوت مباركاً براً حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٢٤).
(٣) النقع: موضع قرب مكة أو الغبار.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).
(٥) مغلغلة: رسالة محمولة من بلد إلى بلد.

فـــإن أبـــي ووالـــده وعـــرضـــي لـــعـــرض مـــحـــمـــد مـــنـــكـــم وقـــاء
لـــســـانـــي صـــارم لا عـــيـــب فـــيـــه وبـــحـــري لا تـــكـــدره الـــدلاء [١]

ومما يؤيد حرص النبي ﷺ على دخوله من كداء، ما جاء عن ابن عمر ﷺ قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر [٢]، فتبسم إلى أبي بكر فقال: «يا أبا بكر كيف قال حسان»، فأنشده قوله:

تـــظـــل جـــيـــادنـــا مُـــتَـــمَـــطِّـــرات تـــلـــطـــمـــهـــن بـــالـــخـــمـــر الـــنـــســـاء [٣]

ثانياً: دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال:

دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام [٤]، وهو واضع رأسه تواضعاً للّه، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح، مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز [٥]، وعندما دخل مكة فاتحاً ـ وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي ـ رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة [٦].

يقول محمد الغزالي في وصف دخول النبي ﷺ مكة:

على حين كان الجيش الزاحف يتقدم، ورسول الله ﷺ على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع للّه، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ... إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول كيف خرج مطارداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً؟ وأي كرامة عظمى حقّه الله بها هذا الصباح الميمون؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد للّه على راحلته خشوعاً وانحناءً ... [٧].

هذا وقد حرص النبي ﷺ على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم نستحل الكعبة، قال ﷺ:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٩).
(٢) الخمر جمع خمار، مأخوذ من الخمر وهو الستر وهو ما تستر به النساء وجوههن.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٣١).
(٤) مسلم رقم (١٣٥٨).
(٥) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٣٩٦).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص ٣٣٧).
(٧) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٣٧٩، ٣٨٠).

«هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»، وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلّمها لابنه قيس بن سعد، وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنى عنها، وفي نفس الوقت لم يُثره، ولا أثار الأنصار وسلّمها لابنه، ومن طبيعة البشر أن لا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه [١].

ولما نزل رسول الله ﷺ بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها [٢]، وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله، إذ كان يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفىء على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً [٣]، ورأى في الكعبة الصور والتماثيل، فأمر بالصور وبالتماثيل فكسرت [٤]، وأبى أن يدخل جوف الكعبة حتى أخرجت الصور، وكان فيها صورة يزعمون أنها صورة إبراهيم وإسماعيل وفي يديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ: «قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط. . .» [٥].

ثم دخل البيت وكبّر في نواحيه ثم صلّى، فقد روى ابن عمر أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقها عليه ثم مكث فيها قال ابن عمر: فسألت بلالاً حين خرج ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذٍ على ستة أعمدة ثم صلّى [٦].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، قبل أن يسلم؛ فأراد علي رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السقاية؛ لكن النبي ﷺ دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة، وردّه إليه قائلاً: «اليوم يوم بر ووفاء» [٧]، وكان ﷺ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: «يا عثمان؛ لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت»، فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ وذلّت، فقال: «بل عمرت وعزّت يومئذٍ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال [٨]، ولقد أعطى له

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية (ص ١٩٦).
(٢) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٣٩).
(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٢٨٢).
(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٣٩).
(٥) البخاري، كتاب المغازي (٥/ ١١٠) رقم (٤٢٨٨).
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦١، ٦٢).
(٧) المصدر السابق (٤/ ٦١).
(٨) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).

رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء [١]، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» [٢]، وهكذا لم يشأ النبي ﷺ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في يد أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الإثارة أولاً، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق. . . . هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ البر والوفاء، حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا [٣].

هذا وقد أمر النبي ﷺ بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة، فيؤذن للصلاة، فصعد بلال وأذّن للصلاة وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين، فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر [٤].

ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد، أحد، ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله محمد رسول الله، والكل خاشع منصت خاضع [٥].

ثالثاً: إعلان العفو العام:

١ ـ نال أهل مكة عفواً عاماً، رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول ﷺ ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم» [٦].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل أو السبي، وإبقاء الأموال المنقولة والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تعامل مكة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عنوة لقدسيتها وحرمتها، فإنها دار النسك ومتعبد الخلق وحرم الرب تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٢).
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).
(٣) انظر: صور وعِبَر من الجهاد النبوي في المدينة (ص ٤٠١).
(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٣٨٣).
(٥) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٢٦٩).
(٦) انظر: المجتمع المدني للعمري (ص ١٧٩).

فهي مناخ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجاج والمعتمرين والعباد القاصدين، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكة وإجارة بيوتها، وأدلتهم قوية في حين أن أدلة المانعين مرسلة موقوفة [١].

٢ ـ إهدار النبي ﷺ لبعض الدماء:

إلى جانب ذلك الصفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الذي لا بدّ أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم، وإن وجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة، لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح [٢].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماءهم من متفرقات الأخبار، وهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد ـ مصغراً ـ ومقيس بن حبابة، وهبّار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي، وذكر الحاكم أنه فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة [٣].

ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً فعفا عنه الرسول، وحسن إسلامه [٤].

٣ ـ خطبة النبي ﷺ غداة الفتح وإسلام أهل مكة:

وفي غداة الفتح بلغ النبي ﷺ أن خزاعة ـ حلفاءه ـ عدت على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك برجل قتل في الجاهلية، فغضب وقام بين الناس خطيباً فقال: «يا أيها الناس إن الله قد حرَّم مكة يوم خلق السمٰوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىءٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد ـ يقطع ـ فيها شجراً، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله أحلّها لرسوله ولم يحلها لكم.

يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينَّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قُدِّم قاتله، وإن شاؤوا فعقله [٥]».

---

(١) انظر: المجتمع المدني للعمري، (ص ١٨٠).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)؛ تأملات في السيرة (ص ٢٦٢).
(٣) فتح الباري (٧/ ٩).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٥١) وعقله: ديته.

كان من أثر عفو النبي ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهل مكة رجالاً ونساءً وأحراراً وموالي في دين الله طواعية واختياراً، وبدخول مكة تحت راية الإسلام دخل الناس في دين الله أفواجاً، وتمت النعمة، ووجب الشكر [١]، وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعاً الرجال والنساء، والكبار والصغار وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة للّه ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح فقال لرسول الله ﷺ: جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقال: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد» [٢].

وقد روى البخاري: أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية [٣]، وإذا استنفرتم فانفروا»، والمراد أن الهجرة التي كانت واجبة من مكة قد انتهت بفتح مكة، فقد عزّ الإسلام، وثبت أركانه ودعائمه، ودخل الناس فيه أفواجاً، أما الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، أو من بلد لا يستطيع أن يقيم فيه دينه ويظهر شعائره إلى بلد يتمكن فيه من ذلك، فهي باقية إلى يوم القيامة، ولكن هذا دون تلك، فقد تكون واجبة، وقد تكون غير واجبة، كما أن الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروع وباق إلى يوم القيامة ولكنه ليس كالإنفاق ولا الجهاد قبل فتح مكة قال عزّ شأنه [٤]: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة، على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبي: «ولا يسرقن» قالت هند: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني ويكفي بنيَّ، فهل عليّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف». ولما قال: «ولا يزنين»، قالت هند: وهل تزني الحرة؟ ولما عرفها رسول الله قال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عما سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (لا

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، (٢/ ٤٥٦).
(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٣٠٥) (٥/ ١١٤).
(٣) البخاري، كتاب الجهاد والسير رقم (٢٧٨٣).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).

والله، ما مست يد رسول الله يد امرأة قط) وفي رواية: (ما كان يبايعهن إلا كلاماً ويقول: «إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة» [١].

رابعاً: بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة [٢] قبل حنين، ومعه جنود من بني سليم ومدلج والأنصار والمهاجرين، كان تعدادهم حولي ثلاثمائة وخمسين رجلاً فلما رأى بنو جذيمة الجيش بقيادة خالد أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدراً، فقال: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد؛ والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبداً فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه، فلما وُضع السلاح أمر بهم خالد فكتّفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلاً: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» [٣].

ودار كلام بين خالد وعبد الرحمٰن بن عوف حول هذا الموضوع حتى كان بينهم شر، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالد ثأراً لعمه الفاكه بن المغيرة ـ الذي قتلته جذيمة في الجاهلية ـ ولعل هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المروي عند مسلم وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمٰن بن عوف شيء، فسبّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» [٤]. وبعث رسول الله ﷺ علياً فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم وبراءة من دمائهم [٥]، وبهذا التصرف النبوي الحكيم واسى النبي ﷺ بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن [٦]، وكان قتل خالد لبني جذيمة تأولاً منه واجتهاداً خاطئاً، وذلك بدليل أن الرسول ﷺ لم يعاقبه على فعله [٧].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣١٩).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٤٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٩).
(٥) في إسناد ضعف. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٩).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٤٦٥).
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٩).

خامساً: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طهر البيت الحرام من الأوثان التي كانت فيه، كان لا بدّ من هدم البيوت التي أقيمت للأوثان، فكانت معالم الجاهلية ردحاً طويلاً من الزمن [١]، فكانت سرايا رسول الله تترى لتطهير الجزيرة منها.

١ ـ سرية خالد بن الوليد إلى العزى:

توجهت سرية قوّتها ثلاثون فارساً بقيادة خالد بن الوليد إلى الطاغوت الأعظم منزلة ومكانة عند قريش وسائر العرب (العزى) لإزالته من الوجود نهائياً، وعندما وصلت السرية إلى العزى بمنطقة نخلة قام إليها خالد؛ فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليه [٢]، وهو يردد: كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك [٣]، ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله ﷺ وقدم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبي ﷺ استدرك على قائد السرية وقال له: «هل رأيت شيئاً؟» قال: لا [٤] فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» [٥]، فرجع خالد وهو مغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السدنة إليه عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة، فهربوا إلى الجبل وهم يصيحون: يا عزى خبليه، يا عزى عوريه، فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فتقدم إليها خالد رضي الله عنه بشجاعته المعروفة وضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فقال: «تلك هي العزى» [٦].

٢ ـ سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة:

مناة اسم صنم كانت على ساحل البحر الأحمر مما يلي قديداً [٧] في منطقة تعرف بالمشلل [٨]، وكانت للأوس والخزرج وغسان ومن دان بدينهم، يعبدونها ويعظمونها في الجاهلية ويهلون منها للحج وقد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة وتحرجاً وتعظيماً لها حيث كان ذلك سنة في آبائهم، من أحرم لمناة لم يطف بين الصفا والمروة [٩] ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا له ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية [١٠]، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

---

(١) انظر: معين السيرة (ص ٣٩٤).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٢).
(٣) المصدر السابق، (ص ٢٨٢).
(٤) انظر: المغازي (٢/ ٨٧٤).
(٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٢).
(٦) المصدر السابق، (ص ٢٨٣).
(٧) ما بين مكة والمدينة.
(٨) المشلل من قديد وبالمشلل كانت مناة.
(٩) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٦).
(١٠) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢٢).

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية ومبتدع الأوثان ومحرف الحنفية دين إبراهيم عليه السلام عمرو بن لحي الخزاعي [١]، فلما فتح الله على المسلمين مكة بعث رسول الله إلى مناة رجلاً من أهلها سابقاً الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية وهو سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه على رأس سرية قوتها عشرون فارساً، وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائياً [٢].

انطلق زيد ومن معه في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها، فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها [٣].

فصاح بها السادن صيحة الواثق: مناة دونك بعض عصاتك [٤]، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد رضي الله عنه بكل ذلك وضربها ضربة قاتلة قضت عليها ثم أقبل مع أصحابه على الصنم فهدموه ولم يجدوا في خزانتها شيئاً، وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ [٥].

٣ ـ سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال تعالى مخبراً عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نُوح: ٢٣].

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنم كان لقوم نوح عليه السلام، ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية [٦]، وظل هذا الوثن منصوباً تعبده هذيل وتعظمه حتى إنهم كانوا يحجون إليه [٧]، حتى فتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجاً، فبعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع، ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: (فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن

---

(١) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٧).
(٢) المصدر السابق، (ص ٢٨٧).
(٣) انظر: الطبقات (٢/١٤٦).
(٤) المصدر السابق، (٢/١٤٦).
(٥) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٨٨). قال مؤلف الكتاب الدكتور بريك أبو مايلة: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية ويمكن الاستئناس به تاريخياً، حيث ذكر أهل المغازي أن رسول الله أرسل بعض السرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربية، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك، لكونها أحد أكبر الطواغيت في الجزيرة. ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرسالة العلمية التي أشرف عليها الدكتور أكرم العمري.
(٦) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٢٩٢).
(٧) انظر: سبل الرشاد للشامي (٦/٣٠٣).

أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل، ويحك هل يسمع أو يبصر، قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا شيئاً ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله [١].

ونستفيد من حركة السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ للقضاء على الأصنام والأوثان أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة.

وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركاً عندها وبها [٢].

المبحث الثالث

دروس وعِبَر وفوائد

أولاً: مواقف دعوية وقدرة رفيعة في التعامل مع النفوس:

١ ـ إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمت [٣] بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل: أن اطلب لي جواراً من محمد، وإني لا آمن من أن أُقتل. وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه فليس أحد أسوأ أثراً مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدراً وأُحداً، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله فقال: يا رسول الله تؤمنه؟ فقال: «نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر!» ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيلاً بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه أنه لم يكن له بنافع!» فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سُهيل: كان والله براً، صغيراً وكبيراً! فكان سهيل يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرّانة [٤].

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٧٠).
(٢) انظر: السرايا والبعوث النبوية (ص ٣٠٢).
(٣) أي رميت بنفسي.
(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٤٦ ـ ٨٤٧)، المستدرك للحاكم (٣/ ٣٨١).

لقد كانت لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه، وكان مكثراً من الأعمال الصالحة [١]، يقول الزبير بن بكار: كان سهيل بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، ويقال: إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على كردوس [٢] يوم اليرموك [٣].

٢ ـ إسلام صفوان بن أمية:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: .... وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة [٤]. وجعل يقول لغلامه يسار وليس معه غيره: وَيْحَك انظر من ترى، قال: هذا عمير بن وهب. قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمداً عليّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حملتني دينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عُمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، سيد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تُؤمّنه فداك أبي وأمي! قال رسول الله ﷺ: «قد أمنته»، فخرج في أثره فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمنك. فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه فأخبرته بما أمنته فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذٍ مُعتجراً [٥] به، بُرد حَبَرة [٦]. فخرج عمير في طلبه الثاني حتى جاء بالبُرد فقال: أبا وهب جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مَجْده مَجْدك، وعزه عزك، ومُلكه مُلكك، ابن أمك وأبيك. أذكر الله في نفسك. قال له: أخاف أن أُقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك شهرين، فهو أوفى الناس وأبرّهم وقد بعث إليك بُبْرده الذي دخل فيه معتجراً، تعرفه؟ قال: نعم. فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله ﷺ يُصلّي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا فقال صفوان: كم

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ٢١٦، ٢١٧).

(٢) كردوس: فرقة كبيرة.

(٣) انظر: سيرة أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).

(٤) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وهو كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة، معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).

(٥) الاعتجاز بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه (النهاية: ٣/ ٦٩).

(٦) الحبرة: ضرب من ثياب اليمن.

تُصلُّون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يُصلي بهم محمد؟ قال: نعم. فلما سلّم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببُردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمراً وإلا سيرتني شهرين. قال: «انزل أبا وهب». قال: لا والله، حتى تبيّن لي، قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر، فنزل صفوان.

وخرج رسول الله ﷺ قبل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: طوعاً أو كرهاً؟ قال رسول الله ﷺ: «عارية مُؤَداة»، فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنيناً، والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شِعَب مُلِيءَ نَعَماً وشاءً ورعاءً فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه فقال: «أبا وهب، يعجبك هذا الشِّعب؟» قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأسلم مكانه [١].

ونلاحظ في هذا الخبر أن النبي ﷺ حاول أن يتألف صفوان بن أمية إلى الإسلام حتى أسلم، وذلك بإعطائه الأمان ثم بتخييره في الأمر أربعة أشهر، ثم بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسان عادي، فأعطاه أولاً مائة من الإبل مع عدد من زعماء مكة ثم أعطاه ما في أحد الشعاب من الإبل والغنم، فقال: ما طابت نفس أحد بهذا إلا نفس نبي ثم أسلم مكانه [٢]، وقد وصف لنا صفوان بن أمية عطاء النبي ﷺ فقال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ [٣].

٣ ـ إسلام عكرمة بن أبي جهل:

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله فأمِّنه، فقال رسول الله ﷺ «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه ومعها غلام لها روميّ، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه حتى قدمت على حيٍّ من عَكٍّ [٤]، فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطاً، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة فركب البحر، فجعل نُوتيّ السفينة يقول له: أخلص! فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله. قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبرّ الناس وخير الناس، لا

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥٣ ـ ٨٥٥).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٠).
(٣) مسلم، كتاب الفضائل رقم (٢٣١٣، ص ١٨٠٦).
(٤) عك: مخلاف من مخاليف مكة التهامية، معجم ما استعجم، (ص ٢٢٣).

تُهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني استأمنت لك محمداً رسول الله ﷺ قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمَّنك فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره فقتله عكرمة، وهو يومئذٍ لم يُسلم، فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تَسُبّوا أباه فإن سبّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها، فتأبى عليه وتقول: إنك كافر، وأنا مسلمة. فيقول: إن أمراً منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه ـ وما على النبي ﷺ رداء ـ فرحاً بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ فوقف بين يديه، وزوجته مُتنقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني. فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، فأنت آمن!» فقال عكرمة: فإلام تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة... وتفعل، وتفعل»، حتى عدّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه وأنت أصدقنا حديثاً وأبرُّنا برًّا. ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله علّمني خير شيء أقوله. قال: «تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله». قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تقول أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد». فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «لا تسألني شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيته»، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال منِّي من عرض، في وجهي أو أنا غائب عنه!» فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقها في صدٍّ عن سبيل إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنت أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيدا [١].

وبعد أن أسلم ردّ رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول [٢].

كان سلوك النبي ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً، يكفي وحده لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له ورحّب به. وفي رواية قال له: «مرحباً بالراكب المهاجر» [٣]، فتأثر عكرمة من ذلك الموقف فاهتزت مشاعره وتحركت أحاسيسه، فأسلم، كما

---

(١) يعني يوم اليرموك.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١ ـ ٨٥٣).

(٣) انظر: مجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥) مرسل ورجاله رجال الصحيح في إحدى سنديه وأما الإسناد الآخر من رواية الطبراني: رجاله رجال الصحيح إلا مصعب بن سعد لم يسمع من عكرمة.

كان لموقف أم حكيم بنت الحارث بن هشام أثر في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله ﷺ وغامرت بنفسها تبحث عنه لعل الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها امتنعت عنه وعلّلت ذلك بأنه كافر وهي مسلمة، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنه أمام دين عظيم، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التفكير في الإسلام ثم تُوِّج بإسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان صادقاً في إسلامه فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا وإنما سأله أن يغفر الله تعالى له كل ما وقع فيه من ذنوب ماضية، ثم أقسم أمام النبي ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يُبلى في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد برّ بوعده فكان من أشجع المجاهدين والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردة ثم في فتوح الشام حتى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل الله [١].

٤ ـ مثل من تواضع النبي ﷺ، إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق ﵂: لما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «غيّروا هذا من شعره» [٢]، ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه [٣].

وفي هذا الخبر منهج نبوي كريم سنّه النبي ﷺ في توقير كبار السن واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقّر كبيرنا» [٤].

وفي قوله ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم» [٥]، كما أنه ﷺ سنّ إكرام أقارب ذوي البلاء، والبذل والعطاء والسبق في الإسلام، تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمة للإسلام والمسلمين ونصر دعوة الله تعالى [٦].

٥ ـ مثل عفو النبي ﷺ وحلمه، إسلام فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح الليثي قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٤، ٥٥).
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٥٧).
(٤) انظر: سنن الترمذي، كتاب البر (باب ١٥ رقم ١٩٨٦).
(٥) انظر: سنن أبي داود، كتاب الأدب (باب ٢٠ قم ٤٨٤٣).
(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٧/ ١٩٥).

منه، قال رسول الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: «ماذا كنت تحدث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: «استغفر الله»، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما منْ خلق الله شيء أحبُّ إليَّ منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هَلُمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلامُ
لوما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسَّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بَيِّناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام [1]

ثانياً: أتكلمني في حد من حدود الله؟

قال عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلوّن وجه رسول الله. فلما كان العشيُّ قام رسول الله خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد... فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ [2].

وهكذا يستمر البناء التربوي للأمة ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حد سواء، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع رباني لا يفرّق بين الناس، فهم كلهم أمام رب العالمين سواء، وأصبحت معايير الشرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى، وفي هذا الموقف الذي أثار غضب رسول الله الشديد واهتمامه الكبير لعبرة للمسلمين حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلامية [3].

ثالثاً: أجرنا من أجرتِ يا أم هانىء:

قالت أم هانىء بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة فرّ إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل عليَّ

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٧/ ٢١٣).
(٢) البخاري، المغازي (رقم ٤٣٠٤).
(٣) انظر: معين السيرة (ص ٤٠٢)، التاريخ الإسلامي (٧/ ٢٣٣).

عليُّ بن أبي طالب أخي، فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه، فتوشح به، ثم صلّى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: «مرحباً وأهلاً يا أم هانىء ما جاء بك؟» فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ؛ فقال: «قد أجرنا من أجرتِ وأمنا من أمنت فلا يقتلهما» (١).

رابعاً: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد أسلم وكتب الوحي ثم ارتد، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقد أهدر دمه إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة، فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلاً ثم قال: «نعم»، فلما انصرف مع عثمان قال رسول الله ﷺ لمن حوله: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمتُّ فيقتله. فقالوا: يا رسول الله هلا أومأت إلينا؟ فقال: «إن النبي لا يقتل بإشارة» (٢)، وفي رواية إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين (٣).

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامه بعد ذلك وولاه عمر بعض أعماله ثم ولاه عثمان (٤).

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجد في صلاة الصبح أو بعد انقضاء صلاته في بيته (٥).

خامساً: المحيا محياكم والممات مماتكم:

قال أبو هريرة: . . . . أتى رسول الله ﷺ الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعض أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يقضي، قال: فلما قضى الوحي رفع رأسه ثم قال: «يا معشر الأنصار قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: «فما أسمى إذاً؟ كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»، قال: فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم» (٦).

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٩، ٦٠)؛ صحيح السيرة، ص ٥٢٧).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٦).
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٢٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٥٨).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٦).
(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٢٩، ٥٣٠).

سادساً: إسلام عبد الله الزبعري شاعر قريش:

لما فتحت مكة فرّ عبد الله الزبعري السهمي إلى نجران، فلحقته قوافي حسان، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيّره الجبن والفرار فقال له:

لا تعد من رجلاً أحلك بُغضُهُ نجران من عيش أحذَّليم [١]

أي فليبق الله لنا محمداً ﷺ هذا الرجل العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران، وليدُم الله عليك ابن الزبعري عيشاً ذليلاً مهيناً أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري وعلى نجله، ويسأل الله تعالى أن يخلده في سوء العذاب وأليمه [٢]:

غضب الإله على الزبعري وابنه وعذاب سوء في الحياة مقيم

فتطايرت تلك الأبيات ووصلت إلى ابن الزبعري، فقام وقعد وقلب أموره ثم أراد الله به الخير، فعزم على الدخول في الإسلام، ثم توجه إلى مكة وقصد رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه وطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام، فقال له رسول الله: «إن الإسلام يجبُّ ما قبله» [٣]. ثم أدناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حلة [٤]، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعري رضي الله عنه، قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ [٥]، قال ابن عبد البر رحمه الله: وله ـ ابن الزبعري ـ في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره [٦].

وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم، ومدح النبي ﷺ فأمر له بحلة [٧].

وقال القرطبي: (وكان شاعراً مجيداً، وله في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى في كفره [٨]. . . .) وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منَّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذب عنه [٩].

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧).
(٢) الصحابي الشاعر عبد الله الزبعري، محمد كابتي (ص ٩٢).
(٣) المغازي (٢/ ٨٤٨).
(٤) الأعلام الزركلي (٤/ ٨٤)؛ الإصابة لابن حجر (٢/ ٣٠٨) نقلاً عن المرجع الذي بعده.
(٥) انظر: الصحابي الشاعر عبد الله بن الزبعري (ص ٩٧).
(٦) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (٢/ ٣١٠).
(٧) انظر: الإصابة (٢/ ٣٠٨).
(٨) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٤٠٧).
(٩) البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨).

ومن القصائد الرائعة التي قالها في مدح النبي ﷺ وندمه على محاربة الإسلام وتأخره في الدخول فيه حيث قال:

منع الرقادَ بلابلٌ وهموم ... والليل معتلج [١] الرِّواق [٢] يهيم [٣]
مما أتاني أن أحمد لامني ... فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانه [٤] سرح اليدين غشوم [٥]
إني لمعتذر إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطةٍ ... سهمٌ وتأمرني بها مخزوم
وأمدُّ أسبابَ الردى ويقُودني ... أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد ... قلبي ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابُها ... ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدىً لك والديّ كلاهما ... زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة ... نور أغرُّ وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبةٍ برهانه ... شرَفاً وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق ... حق وأنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى ... مستقبلٍ في الصالحين كريم
قرمٌ علا بنيانه من هاشمٍ ... فرعٌ تمكَّن في الذرى وأروم [٦]

سابعاً: من الأحكام الشرعية التي تؤخذ من الغزوة، ومكان نزول الرسول ﷺ بمكة:

١ ـ اتضح كثير من الأحكام الشرعية خلال فتح مكة منها:

أ ـ جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية حيث صام الرسول في مسيرة الجيش من المدينة حتى بلغ كديدا فأفطر [٧].

ب ـ صلّى النبي ﷺ صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة [٨]، واستدل قوم بهذا على أنها سنّة مؤكدة [٩].

---

(١) معتلج: ملتطم.
(٢) الرِّواق: مقدم الليل.
(٣) بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح.
(٤) عيرانة: راحلة.
(٥) غشوم: شجاع لا يثنيه أمر عن عزمه.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٠٧، ٣٠٨) أروم: أصل.
(٧) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٤).
(٨) المصدر السابق (ص ٥٧٤).
(٩) المصدر السابق (ص ٥٧٤).

جـ ـ قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي بمكة تسعة عشر يوماً يقصرالصلاة [١].

د ـ تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام [٢]، ويرى الإمام النووي [٣]، أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين، إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحرم يومها، ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد ويرى ابن القيم [٤] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح، والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح [٥].

هـ ـ قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش وللعاهر الحجر، كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة بن زمعة، فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن زمعة، فقضى فيه رسول الله لعبد الله بن زمعة لأنه ولد على فراش أبيه.

و ـ عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه بمكة واستشارة الرسول ﷺ في أن يوصي بأكثر من الثلث [٦].

هذه بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث الغزوة والفتح العظيم.

٢ ـ مكان نزول الرسول ﷺ بمكة:

نزل رسول الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟» مبيناً أنه لا يرث المسلم الكافر [٧]، وكان عقيل قد ورث أبا طالب هو وطالب أخوه وباع الدور كلها، وأما عليّ وجعفر فلم يرثاه لأنهما مسلمان وأبو طالب مات كافراً [٨].

ثامناً: من نتائج فتح مكة:

كان لفتح مكة نتائج كثيرة منها:

---

(١) انظر: المجتمع المدني (ص ١٨٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية (ص ٥٧٥).
(٣) النووي على شرح مسلم (٩/ ١٨١). اعتمدت على فقه الأحكام على ما استخرجه الدكتور العمري في المجتمع المدني، والدكتور مهدي رزق الله في السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية.
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥، و٤٥٩ ـ ٤٦٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة (ص ٥٧٥).
(٦) المجتمع المدني للعمري (ص ١٨٦)، سنن الترمذي (٣/ ٢٩١).
(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤٨٢).
(٨) المصدر السابق (٢/ ٤٨٢).

١ ـ دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف ومن ثم إلى العالم أجمع.

٢ ـ أصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب: وبعد فتح مكة، تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها، وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة، لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه [١].

٣ ـ كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر في هذا الفتح المبارك، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت في رفقه ﷺ وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم وتعيين من يعلمهم، ويفقههم في دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكة بعد انصرافه عنها ليصلي بالناس، ويفقههم في دينهم، وأما الآثار السياسية فقد عيّن عتاب بن أسيد أميراً على مكة، يحكم في الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم [٢]، وأما الآثار الدينية فإن فتح مكة، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده فدخلوا فيه أفواجاً[٣].

٤ ـ تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين، بعدما ضحوا بالغالي والنفيس، وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه كسنّة الابتلاء، والتدافع، والتدرج، وتغيير النفوس، والأخذ بالأسباب، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذناً للصلاة بعد أن عذب في بطحاء مكة وهو يردد: أحد أحد في أغلاله وحديده، ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو في نشوة الإيمان.

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، أحمد عرموش (ص ١٢٩).
(٢) انظر: تأملات في سيرة الرسول (ص ٢٦٦).
(٣) المصدر السابق (ص ٢٦٧).